طنجة: نموذج للصراع الإمبريالي
بالجنوب الغربي للبحر الأبيض المتوسط

ذ. محمد خرشيش
كلية الآداب

شكلت طنجة طيلة القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين هدفا للأطماع الاستعمارية نظرا لوقعها الاستراتيجي المتميز من جهة وأهميتها الديبلوماسية من جهة أخرى خاصة بعدما فقدت تطوان مكانتها كعاصمة ديبلوماسية للمغرب لصالحها.

وقد اشتد التنافس الغربي الإمبريالي حول طنجة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر خاصة بين فرنسا وبريطانيا وألمانيا وإسبانيا، والذي لا يمكن فهم مراميه واستيعاب خلفياته وأبعاده إلا بوضعه في إطاره الشمولي، أي، من خلال التطورات التي كانت أوربا مسرحا لها ومن خلال المتغيرات التي شهدتها منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط في إطار الاستراتيجية الجديدة للقوى الإمبريالية، إضافة إلى ضعف السلطة المركزية بالمغرب. مما سهل مأمورية القوى المتنافسة/المتصارعة على المغرب عامة وطنجة على وجه الخصوص.

وفي هذا الإطار لابد من التأكيد أن السياسة البريطانية أصبحت منذ احتلالها لجبل طارق في غضون 1704 تتمحور على ضمان حرية الملاحة في المضيق، على اعتبار أن حرية الملاحة بالنسبة لأول قوة بحرية إمبريالية تتوفر على مستعمرات في كل القارات كانت مسألة حيوية

للحفاظ على مصالحها وتوسيع مناطق نفوذها.

ويمكن القول إنه بعد فتح قناة السويس أصبحت طنجة تمثل حجر الزاوية في الاستراتيجية البريطانية الرامية إلى ضمان هيمنتها على المضيق، وبالتالي الحفاظ على الوضع العام statu quo الجيواستراتيجي في الجنوب الغربي للبحر الأبيض المتوسط؛ لذلك اعتبر ممثل بريطانيا في المدينة نفسه احارس بوابة المتوسطب وعلى هذه الخلفية تحدد الثابت الأساسي للسياسة البريطانية: فهي تسيطر على الضفة الأوربية لمضيق جبل طارق ولن تسمح باستقرار قوة أخرى على الضفة الجنوبية.

طنجة في معترك الصراع الدولي

بادئ ذي بدء يجب التذكير بأن تدويل مدينة طنجة لم يكن وليد التوقيع على معاهدة 18 دجنبر 1923 التي أرست دعائمه وكرست النظام الدولي بصفة نهائية؛ لأن معالم هذا الوضع بدأت تتبلور منذ أواخر القرن الثامن عشر عندما قرر السلطان محمد بن عبد الله اختيار مدينة طنجة لتكون مقرا للهيئة القنصلية المعتمدة بالمغرب أو بعبارة أوضح لتكون عاصمة ديبلوماسية للبلاد.. ومنذ ذلك الحين أصبح الممثلون الغربيون يشكـــلون مع جالياتهم المجتمعا قائما بذاتهب ومتطلباته وطموحاته ومخططاته المسمومة، والذي يمكن اعتباره الخلية الأولى التي سرعان ما توفرت الظروف في غضون القرن التاسع عشر لنمـــوها وتطورها إلى أداة فعالة في يد القوى الإمبريالية لتمرير سياستها التوسعية؛ إذ بالإضافة إلى نظام الامتيازات والحماية القنصلية وما حملته في ثناياها من بذور تفكيك السيادة الوطنية بطنجة، استطاع الأوربيون الحصول على امتيازات أخرى بالمدينة، كحق فتح مدارس ومكاتب للبريد ومراكز للتلغراف... بمقتضى المعاهدات الثنائية التي فرضت على المغرب. على أن ما كرس تدخلهم بشكل جلي هو تأسيسهم مجالس وخلايا دولية تمارس وظائف تمس في العمق السيادة الوطنية على المدينة[1].

إن بريطانيا، بحكم مصالحها الحيوية كقوة إمبريالية رائدة وتواجدها بجبل طارق، كانت أكثر البلدان حرصا على التحكم في مصير طنجة وعدم سقوطها في أيدي قوة أخرى غيرها[2]؛ لذلك لم تتوان للوقوف في وجه المشروع الإسباني عقب احرب تطوانب والذي كان يهدف إلى السيطرة على طنجة[3]. كما أن هاي «Hay» كان يقف في وجه أي مخطط يهدف إلى إحراز أي سبق من طرف قوة أخرى سواء في الميدان السياسي أو الاقتصادي. ويعبر عن ذلك صراحة بقوله: «إن إنجلترا لن تسمح أبدا أن تستولي فرنسا على المضيق ركن تجارتها وطريق الهند

والمشرق»[4]. وتجدر الإشارة إلى أن بريطانيا لم تكن تهدف إلى بسط نفوذها على المغرب بقدر ما كانت تحرص على مصالحها من خلال الحفاظ على الوضع القائم وتفادي انفراد أي دولة بطنجة.

مما لاشك فيه أن فرنسا ركزت اهتمامها جديا بالمغرب منذ أن أقدمت على احتلال الجزائر، ثم بعد ذلك تونس، وأصبح لها بذلك مصالح سياسية واقتصادية أكيدة، ولم تكن تنتظر إلا الظروف الملائمة من خلال ربح رهانها التنافسي مع القوى الأخرى للانقضاض على هذا البلد. ونظرا للأهمية الجيواستراتيجية لطنجة، فقد كانت فرنسا حريصة على عدم فصلها عن بقية المغرب لأنها كانت تريد أن تجعل منها ميناء عسكريا متوسطيا، كما عبر عن ذلك الجنرال ليوطي Lyautey؛ لذلك كان هدفها أن تظل طنجة تحت سيادة السلطان، ولم تحبذ فكرة تدويلها إلا بعد أن حصلت على ضمانات في هذا الشأن.

وفي هذا الإطار يأتي تصريح سفير فرنسا بلندن مخاطبا وزير الخارجية البريطاني قائلا: «ما هي مصلحتكم بالمغرب إنها طنجة، إن أوربا لا يمكن أن توافق على خضوعها لسيطرتكم، كما لا يمكنكم أن تتركوا أي دولة أخرى تسيطر عليها. ألا يمكن تحييد طنجة؟»[5].

أما إسبانيا التي كانت تعيش مرحلة تراجع وانهيار أكيدين، بعد أن أجبرت على مغادرة مستعمراتها الأمريكية في ظروف جد صعبة عند نهاية القرن التاسع عشر، فإنها كانت تعتبر المغرب بمثابة تعويض لما أصابها من خسائر مادية ومعنوية مرتكزة على احقوقهاب التاريخية بحكم جوارها للمغرب وحضورها الفعلي في سبتة ومليلية. لكن إمكانياتها الاقتصادية والعسكرية لم تكن تؤهلها لفرض توجهها واختياراتها وتجسيد طموحاتها. لذا فإن المنحى الذي أخذه التنافس البريطاني – الفرنسي في حدته وحساباته المتعددة، مكن إسبانيا من الحصول على نصيبها من المغرب خاصة وأن بريطانيا كانت ترغب بأي ثمن تلافي استقرار فرنسا على الضفة الجنوبية من مضيق جبل طارق.. إلا أن حصول إسبانيا على االفتاتا لم يمنعها من التعبير عن قلقها من مشروع تدويل طنجة معتبرة أن هذه المدينة يجب أن يتم ضمها للمنطقة الإسبانية.

إن تطابق وجهات النظر البريطانية والفرنسية، كل حسب موقعه ومصالحه الخاصة، في ما يتعلق بالطموحات الإسبانية بشأن طنجة، ساهم إلى حد كبير في تعقيد مأمورية سلطاتها التي كانت تتوق إلى تجسيد هذا المطلب الذي كان يحظى بإجماع الرأي العام الإسباني.

وفي هذا السياق نورد ما يتضمنه موئلف الصحفي البريطاني هاريس Harris حول اطنجة والمنطقة الإسبانيةب من معطيات دقيقة تدحض الادعاءات الإسبانية حول حضورها البشري بطنجة وفعالية جاليتها بالمدينة[6]. معتبرا أن الأنشطة الاقتصادية الفرنسية والبريطانية بطنجة هي التي كانت وراء التحاق فلول من الإسبان للعمل في الأوراش المزدهرة بالمدينة[7].

إن الاهتمام الألماني بالمغرب لم يبرز بشكل واضح إلا إبان العهد البسماركي، أي، بعد أن توحدت ألمانيا وانتصارها التاريخي على فرنسا في مطلع العقد الثامن من القرن التاسع عشر. إذ لم تكن لها قبل هذا التاريخ أية مطالب ترابية بقدر ما كانت تركز على مصالحها الا ـ ـا ـ ماسية والتجارية. لكن الصراع المفتوح مع فرنسا دفعها إلى اعتبار المغرب ورقة لعرقلة ، سياسة الفرنسية انطلاقا من الجزائر وتحويل أنظارها عن قضية الألزاس واللورين[8]. أضف إلى ـ لك أن الاتفاقية الفرنسية ـ البريطانية لسنة 1904 ألقت بظلالها على العلاقات الفرنسية ـ الا ـانية من خلال زيارة الإمبراطور غيوم II لطنجة (1905) للتعبير عن معارضته الشديدة لأي إجراء يمس بالمساواة بين الدول داخل المغرب[9]. ثم بعد ذلك بقرب انفجار الوضع سنة 1911 في ما يصطلح على تسميته بـ اقضية أكادير. ولم تهدأ الأوضاع إلا بتوقيع الاتفاق الفرنسي ـ الألماني الذي مثل آخر عقبة قبل أن تفرض فرنسا احمايتهاب على المغرب سنة 1912.

انطلقت في غضون 1912 المفاوضات بين القوى الثلاث (فرنسا ـ بريطانيا ـ إسبانيا)، في أفق التوصل إلى اتفاق يرضي مختلف الأطراف فيما يتعلق بمصير طنجة، وسط أجواء مشحونة ومواقف متباعدة. فمن جهة كانت بريطانيا تحرص كل الحرص على تدويل طنج ترى أن سلطة السلطان يجب أن تقتصر على الجانب الديني. في حين أن إسبانيا كانت تعتبر طـ جة جزءا لا يتجزأ من منطقة نفوذها، وبالتالي يجب أن يتم إلحاقها بسلطة الخليفة بتطوان. أما فرنسا فإنها كانت ترتكز على معاهدة فاس وتبعا لذلك كانت تعتبر أنها يجب أن تكون تابعة لسيادة سلطان المغرب.

وبعد أن أظهرت الأطراف المشاركة استعدادها للتفاهم استمرت المفاوضات الثلاثية إلى حدود سنة 1914 وبدت مسألة طنجة على وشك التسوية النهائية. إلا أن اندلاع الحرب الكونية الأولى وضع حدا لكل الآمال التي كانت تعلقها مختلف الأطراف على مجريات المفاوضات[10].

في خضم الأحداث والتطورات التي تمخضت عن اندلاع الحرب، اعتبرت إسبانيا أن الفرصة أصبحت مواتية لتجدد مطلبها الأساسي والقاضي بضم طنجة إلى منطقة نفوذها مستغلة حيادها وانشغال القوى الأخرى بمستجدات الحرب وإكراهاتها. وهكذا نلاحظ سيلا من التصريحات الرسمية من وزراء وبرلمانيين تلح على ضرورة إلحاق طنجة بمنطقة النفوذ الإسبانية[11]. وقد أصدرت جريدة El dia خلاصة استجواباتها مع النواب الإسبان: «نحن ـ إسبانيا ـ يجب ألا نسمح لأي كان بأن يمس حقوقنا في طنجة...»[12]. وفي هذا الإطار بعث سفير إسبانيا بباريس كينونيس دي ليون Quinones de leon برسالة احتجاج لوزير الخارجية الفرنسي بتاريخ 17 نونبر 1919 على إثر حصول «الشركة العامة للصيد والتصدير»

على امتياز الصيد في سواحل طنجة من طرف السلطان، حيث اعتبره باطلا لأنه يتناقض مع البند 57 من اتفاقية 1861 والذي تم تعديله في المعاهدة الفرنسية-الإسبانية لسنة 1904؛ إذ نص البند 11 منها على «... أن الإسبان سيستمرون في التمتع بالحقوق التي تضمنها لهم المعاهدة، بما في ذلك حق الملاحة والصيد في المياه والموانئ المغربية...»[13].

وبعد الحرب اصطدمت إسبانيا بموقف فرنسا التي عادت لتطالب بإلحاق طنجة بمنطقة نفوذها؛ إذ أن انتصار الحلفاء أعطاها فرصة لكي تتنكر لمبدأ التدويل. وهكذا عمدت فرنسا إلى تعزيز موقعها في طنجة تمهيدا لدمجها بمنطقة حمايتها. وقد بررت قرارها بحضورها القوي في الأنشطة الاقتصادية والتجارية للمدينة، كما أن أطوار الحرب بينت، في نظرها، وجاهة إخضاع هذه المنطقة الحيوية من البحر الأبيض المتوسط لدولة واحدة. وكانت ترى أنها الدولة المؤهلة لممارسة السيادة عليها بفضل ممتلكاتها في الجزائر وتونس والجزء الأكبر من المغرب[14]. لكن السلطات الفرنسية كانت تدرك تمام الإدراك أن طنجة لا يمكن أن تكون لا إسبانية ولا فرنسية. ولم تتبين موقفها متشددا إلا أمام إصرار الإسبان على المطالبة بشكل جريء بطنجة. وهذا ما يؤكده سفير فرنسا بمدريد في رسالة موجهة إلى وزارة الخارجية الفرنسية حيث يقول ما مفاده إن فرنسا تحبذ الحل الدولي لأنه سيوهم الإسبان أنهم أطراف في المعادلة التفاوضية[15].

حرب الريف وحسم مسألة طنجة

لقد غيرت حرب الريف مجرى الأحداث بالنسبة لمسألة طنجة خاصة بعد تراكم الهزائم الإسبانية التي تكبدها الجيش الإسباني أمام مجاهدي المقاومة الريفية. فهي من جهة وضعت الإسبان أمام امتحان صعب لم يكن في الحسبان زاد من استفحال المشاكل والصعوبات الاقتصادية والعسكرية لهذا البلد الذي لم يكن مؤهلا لقيادة حرب استعمارية بعد فقدانه لمستعمراته الأمريكية وانهيار نظامه الاستعماري.

لذلك فإن انتصارات المقاومة الريفية وإقدام قائدها المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي على تنظيم صفوفها وفق استراتيجية محكمة، فرضت على الإسبان التركيز على الملف الريفي بشكل أساسي بالنظر لانعكاساته المباشرة على الوضعية الداخلية وتأثيره القوي على الرأي العام الإسباني والدولي.

ومنذ ذلك الحين تغيرت لهجة الطرف الإسباني فيما يتعلق بمسألة طنجة، وتخلت جل الأوساط عن مطلب اطنجة لإسبانياب (Tanger para España) وفي هذا الإطار نسجل موقف Garcia Prieto كارسيا برييطو الذي أعلن أمام النواب الإسبان: ا... قاومنا كثيرا من أجل إدخال طنجة في المنطقة الإسبانية ولكننا لم ننجح. الآن سيصبح ضروريا أن نتعاون ونعمل

بتناسق مع بريطانيا وفرنسا إذا أردنا حل مشكلة المغرب[16].

والجدير بالذكر أن فرنسا استغلت الهزائم الإسبانية في أنوال وما أعقبها من معارك، للتأكيد على عجز إسبانيا للوقوف في وجه الأهالي بدائيينب وفشلها الذريع في ضمان الأمن بمنطقة نفوذها، وبالأحرى المطالبة بتوسيعها إلى منطقة طنجة. بل أكثر من ذلك، شكلت السلطات الفرنسية سياسة تقارب مع المقاومة خلال سنتي 1922 و1923 تمت خلالها زيارات شبه رسمية للجزائر والتربول من طرف مبعوثي عبد الكريم. كما سمحت للمقاومة باستيراد ما كانت تحتاجه من مواد من المنطقة الفرنسية والجزائر[17]. ولم تغير فرنسا سياستها إلا بعد الانقلاب العسكري الـــــذي تم بإسبانيا سنة 1923 بقيـــــادة الجنرال بريمو دي ريفرا Primo de Rivera وبعد أن حققت الأهداف المرحلية المتوخاة من تقاربها مع حركة المقاومة وعلى رأسها إنجـــاز المشاريع ذات الأهمية القصوى والمرتبطة بـ االمغرب النافعب على حد تعبير ليوطي.

في خضم هذه التطورات والمستجدات المتسارعة نضجت الظروف المناسبة لحل إشكالية طنجة التي ظلت عالقة لمدة طويلة أثرت سلبا على العلاقـــــات بين الأطراف الثلاث. وهكذا وبعد مفاوضات مطولة بلندن ثم باريس، ضمـــت كلا من بريطانيا وفرنسا وإسبانيا، تم التوصل إلى الاتفاق الذي سيعمل على تثبيت النظـــام الدولي بطنجة. وقد تم توقيعه في غضون دجنبر 1923.

من خلال ما سبق ذكره، يتضح الموقع المتميز لطنجة كمركز متوسطي حظي باهتمام بالغ من طرف القوى الإمبريالية في صراعها جنوب المتوسط من أجل الدفاع على مصالحها الحيوية انطلاقا من أهدافها وطموحاتها المتباينة. ويتأكد ذلك من خلال السباق البريطاني-الفرنسي والتموقع الإسباني.

1 - CF CUILLEN (P) - " Aux origines de l'internationalisation de Tanger " Contribution l'histoire rÈcente du Maroc. Rabat 1991 - PP 205-215.

والبزاز محمد الأمين، اطنجة في عهد الإدارة الدوليةب، دار النيابة، العدد 18 طنجة 1998. صص 14-24.

Allain (J.C) - " Le double enjeu de Tanger dans la stratÈgie franÁaise... ".
Tanger 1556-1800 - Contribution ‡ l'histoire rÈcente du Maroc - Rabat 1991.
PP 217-237.
MiÈge (J.L) - Le Maroc et l'Europe T2 - Paris 1962.

2 - ابن جلون عبد المجيد ، هذه مراكش، القاهرة 1956. ص 158.

3 - Benjelloun (A) " Tanger entre la paix et la guerre... " Maroc-Europe - Rabat 1991. PP 39-70 P 41.

4 - البزاز محمد الأمين، نفس المقال.

5 – التمسماني خلوق عبد العزيز، «المطامع الإسبانية في طنجة 1914-1945»، دار النيابة، العدد 7, طنجة 1985. ص 45-48.

6 - CF Harris (W.B) - " Tanger et la zone espagnole " IMP. Marocaine - Tanger 1917.
7 - " ...si l'on rencontre beaucoup d'espagnols ‡ Tanger c'est justement parce que Tanger n'est pas espagnole " Ibid. P 11.
8 - Benjelloun ThÈrËse- Visage de la diplomatie marocaine depuis 1844 - EDDIF, Casa blanca. 1991. P 49.

9 - يحضا جامع، «صحافة طنجة مرآة للصراع الدولي حول المغرب»، طنجة في التاريخ المعاصر
- الرباط - 1991. ص 205-206-218.

10 - CF Guillen (P) - op.cit. P 207-208.
11 - " Tout ce que fera l'Espagne sera stÈrile si Tanger reste placÈ sous cet incertain et malheureux protectorat " CF notre article - " Le Maroc dans les relations franco-espagnoles 1912-1923 " Revue de la facultÈ des lettres Tetouan N°6 - 1993. PP 45-58.
12 - GRAHAM H. stuart - The international City of Tangier. Stanford university press - 1995. P 71.AMG

13 - أرشيف وزارة الدفاع الفرنسية فانسين (Vincennes)

3 H 140 - lettre adressÈe au Quai d'Orsay de la part de l'ambassadeur d'Espagne ‡ Madrid.

14-AMG 3 H 140 - رسالة موجهة لسفير بباريس بريطانيا بباريس من طرف رئاسة مجلس الوزراء بتاريخ 26 يناير 1920.
15 - AMG 3 H 140 رسالة من سفير فرنسا بمدريد إلى وزارة الخارجية بتاريخ 12 يناير 1920.

16 - AMG 3 H 140 - Bulletin des questions musulmanes - Graham. H stuart - op.cit. P 72.
17 - CF notre thËse - La France et la guerre de Rif 1921-1926 - universitÈ LumiËre - Lyon II 1989. 491 page.